

سر آل آشرويک

مرت ثلاث عقود على مزاويتي العمل عند عائلة آشرويک، العائلة المحاطة بالغموض، بماضٍ كابوسي وحاضر ملبد بالأسرار. كنت الخادمة في قصر السيد جونز آشرويک، الحفيد الأخير والوريث الوحيد لكل ما تركته سلالة آشرويک. كان السيد جونز غريب الأطوار ذو شخصية غامضة، كما كان حال أجداده: فعائلة آشرويک اشتهرت بطباع وسلوكيات عجيبة، أجسادهم بيضاء شاحبة كأنهم أشباح، تعايرهم الباردة وعيونهم الزرقاء القاتمة، وماضيهم الذي يبقى لغزاً، لكنهم ومع كل ذلك فهم من الطبقة العليا، فاحشي الثراء واسعي النفوذ.

عشت أنا والسيد جونز وزوجته التي لم تنجب له أطفال يوماً، في القصر المهيّب لسلالة آشرويک فهذا البيت توارثوه لعقود جيل بعد جيل. كان القصر من الطوب شاهق الجدران، ينزوي بعزلة عن العالم، تحديداً في ريف ناءٍ يبعد ثلاث ساعات عن أقرب مدينة مأهولة. تحيطه أشجار الصنوبر، وبضباب مشؤوم، يطلّ أمامه مستنقع صغير، وتحوم حوله الغربان كل ليلة. صمته يشبه المقابر، أبوابه بمقابضها الثقيلة كأنها سُيّدت ليفتحها عفريت، والوجوه في لوحات آشرويک تلاحقني بنظرات مريبة، جدرانها متشققة تهمس كأرواح مدفونة. كتبه المكتوبة بلغة غريبة، ونوافذه التي تمنع أشعة الشمس إلا بالمقدار القليل، حتى مستنقعه الصغير الراكد يسمي مخيفاً وهو يعكس ليلاً ضوء القمر. هذه السمات بمفردها تبثّ الرعب في النفس. مجرد التفكير في العيش أو العمل فيه لا يراود إلا عقلاً يائساً... مثلي. لكن ذيول التشرد التي كانت في الشوارع تطاردني، وحاجتي الماسة للمال بعد معرفتي بما يدفعون من أجورٍ عالية، دفعاني لذلك.

من حقائق وأسرار تاريخ عائلة آشرويک، احترافهم العزف على البيانو ببراعة وإتقان يعجز عن مجاراتهم أي عازف بيانو في المدينة، ومنذ عقود، هذه العائلة بقيت تبهر العالم بأساليب عزفها وقدرتها التي تكاد لا تخلو من خطأ، وعلى الرغم من كل صفاتهم الغامضة ومشاعرهم الباردة، إلّا ان عزفهم يتسم بالهدوء والسكينة، بل وبالرومانسية أحياناً! كأنه وسيلة تعبيرهم عن مشاعرهم الوحيدة، ولأجل هذا، البيانو كان ولا زال شيء مقدس وسر من أسرارهم، بل إرثهم وهويتهم، حتى السيد جونز الذي يبدو الآن بليداً وغير مبالياً وهو على مشارف الستين من عمره لم يكلّ أو يمل عن عزف البيانو يوماً واحداً، بدأ منذ الصغر - كما هو حال

جميع أفراد آشرويك - بتعلم البيانو، وأتقنه بسرعة فائقة وصار يعزف يومياً ويؤلف نوتات فاق بها كبار الموسيقيين في عصره، ونُسبت إليه العديد من المقطوعات الموسيقية التي اشتهرت في المدينة، وعُزفت في الحفلات والمناسبات إلى عائلة آشرويك وبالتحديد وريثهم الأخير السيد جونز.

ارتباط العائلة بالبيانو أشبه أن يكون ارتباطاً روحياً، وكأنه مراسيم صلاة عندهم، فيقدّسونه ويبذلون جلّ وقتهم لأجله، حتى في يوم من الأيام دار حوار بيني وبين السيد جونز عن سرّ علاقته وأجداده بالبيانو، فأبى أن يعطي جواباً صريحاً، متلعثماً وكأنه عاجز عن إيجاد إجابة تُشفي غليلي، بالمقابل فهو يُظهر لي دائماً - من طريقة أفعاله لا أقواله - أن البيانو هو أقدس موروثاتهم، وكأنه ربّ أسرته! فيتلون أدعيتهم ويؤدون صلواتهم على عتبتة، مصرّين على العزف عليه باستمرار، وأموالهم وما بلغوه من ثروات تشبه إلى حد كبير عدد النوتات التي ألّفوها! حتى يُذكر أن في الأيام التي خلت من العزف فيها، كانت مشاعرهم تضطرب وأفكارهم تتبعثر، والأجواء في البيت تسمي خانقة. وكأنه يُخيل لي دائماً أن البيانو هو قلبهم النابض، وفي أول أسبوع في البيت لي، مررت بمشهد في كابوس أن البيانو كان يغلغل أطرافه وأصابعه بخيوط خفية عميقاً في أفراد آشرويك وقصرهم، وفي كابوس آخر، رأيتُ البيانو يفتح جوفه كقبر، يسحب آل آشرويك إلى أحشائه.

ما عرفناه عن تاريخ العائلة بالموسيقى كثير، لكن ما عرفناه عن البيانو القابع في الغرفة السفلية - والذي توارثوه لأجيال - قليل؛ بل هو نقطة في لج عميق، فلم يره أو يلمسه أي بشري إطلاقاً، باستثناء أفراد العائلة أنفسهم، أصحاب دم وسلالة آشرويك. ولم يشهد تاريخ الخادمت اللاتي عملن في بيت العائلة من قبل محاولات للمسح أو التقرب إليه بل وحتى الغرفة التي كان يعزف بها السيد جونز وأجداده لم يدخلها غيرهم، وهذه هي إحدى قواعد قصر آشرويك الصارمة: "غرفة البيانو... لا يُدنى من بابها ولا تُمسّ عتبتها" لقصر آشرويك قواعد صارمة، لعل أغربها والذي ظلّ سرّاً دفيناً لم ينكشف لنا إلا بعد زمنٍ طويل: "يحظر على أي فرد من آل آشرويك هجر البيانو أو مقاطعته لأربعين يوماً. ففي الجنازات، كما في الأعياد، لا بدّ أن يبقى البيانو على صلة بعازفه" كثرت الحكايات والأساطير عليه، فمنهم من يقول إن البيانو هو فرد قديم من العائلة آشرويك كان شاعراً رومانسياً، لكنه في فترة من حياته أصابه الاكتئاب، ويُقال أنه في اليوم الأربعين، لفّ أوتار البيانو على عنقه وشنق نفسه، فتجسّد على هيئة بيانو ينشد ويغني من خلاله

آلامه التي اعترت روحه. وخرافة أخرى ذهبت بالقول إن البيانو كان هدية ملعونة من خصم للعائلة قديم، حمل لعنة تُجبر العازف وأحفاده على العزف إلى الأبد.

لكن السيد جونز، في غمرة حزنه بعد وفاة زوجته، ارتكب ما لم يجرؤ عليه أحد من آل آشرويك: كسر القاعدة المقدسة!

مرت الأيام تجرّ خلفها الأسابيع، وهو حبيس غرفته، لا يخرج، لا يلتقي بأحد، ولا يفعل شيئاً سوى الصمت والانعزال. ازدحمت الرسائل على بابه: خطابات عزاء، وعبارات اطمئنان. لكنه لم يرد. لم يفتح أيّاً منها. لم يكثرث للعالم من حوله، ولم يبادرني بالحديث ولو للحظة. كل ما بدر منه في تلك الأيام والليالي هي حسرات ألم وأصوات استهجان يطلقها بلحظة وقوفه على عتبة غرفة البيانو، كأنه بطريقة ما يحمله ذنب هذه الفاجعة.

وأنا، رغم يقيني الراسخ أن أفراد عائلة آشرويك لا يمرضون ولا يسقمون كسائر الناس، إلا أن قلقي عليه كان لا يُحتمل. لقد صار غريباً فوق ما عُرف به من غرابة. رفض الطعام، ألغى مواعيده، وانقطع عن الحياة وتكلمت حالته بعد مضي من الأيام أربعون بالعويل والبكاء. لكن الفاجعة... كان صمته عن البيانو. لأول مرة منذ أجيال، توقف عازف من سلالة آشرويك عن العزف. ولأول مرة... تُدّس القاعدة! والسيد جونز هو الجاني وقد أنت - في تلك الليلة - محاكمته، أتذكر بالتفصيل ما حدث:

في فجر إحدى الليالي، وبعد مضي بما يفوق الشهر على رحيل السيدة آشرويك، والاكتئاب الذي حلّ على السيد جونز، وأنا أغطّ في نوم عميق، استيقظت فجأة على وقعات بيانو، تشبه صرخات خفيفة للسيد جونز لكنها تنبعث من الأوتار. الليل كان باهتاً، والقمر يبلل جدران البيت الغارق في سكون ثقيل. أخيل لي؟ أم أن الليل ارتآه أن يتكلم؟ تجاهلت الأصوات وقررت أن أرقد مستسلمة للنوم.

طن ... طننن! نهضت على فزع، هذه المرة لم تكن أوهاماً أو عبثاً من مخيلتي، بالتأكيد سمعت طنينه يخزّ بعظمي ويتسرب في جسدي، صوت العزف بدا خافتاً لكن غريباً، وقعه مريب ونواته غير متجانسة: "أيمكن أن يكون السيد جونز؟ أفي مثل هذه الساعة؟" تساءلت.

لكن... لا.

هذا ليس عزفه. بل لا أحد من سلالة آشرويك يعزف بهذا الشكل الفوضوي

المنكسر، كمبتدئ يحاول عزف قطعة موسيقية معقدة لأول مرة، كل نغمة كانت تخترق أذني وتصيبني بالصداع. كانت نوتات مضطربة، بعزف لا انسجام فيه، لا هدف، لا ملامح واضحة.

تسلّلت رجفة عميقة في أطرافي، تردّدت لحظة: "أأوقظ السيد جونز ليستقضي الأمر بنفسه؟" خطفت مئزري مندفعة نحو الباب، أهبط الدرجات بخطوات مثقلة، يغالبني النعاس ويشدني الفضول، وجفوني توشك على الإطباق، غير أن ما رأيته في الأسفل بثّ الرعب في قلبي، روجي ارتعشت، ودمي أمسى رماداً في عروقي: "إن ... إن كان هو هنا واقفاً أمامي! فمن عساه الآن في الغرفة، يعزف الآن وبنغمة رتيبة؟" الخوف تملكني، وقشعريرة دبّت في كل زوايا جسدي. أول ما خطر ببالي أن غريب دخل القصر، جالساً في الغرفة يعزف هناك. كان هذا التفسير المنطقي الوحيد.

أما السيد جونز الذي كان واقفاً بلا حراك منتصباً كالتمثال، فلم ينبس ببنت شفة! سكوته كان يقلقني أكثر من الموقف الذي أنا فيه، سكوتي لم يرعبه مثلما أزعجني سكوته، أتراه يفكر مثلي أن متطفل قد تسلل الى القصر بطريقة ما وارتآه العزف على البيانو؟

تقربت منه، كان يحمل شمعة بإحدى يديه مرتدياً نظارته، وجسده الشاحب بدا للحظة أن كل قطرة دم فيه قد تبخرت، شفّته تهمسان بشيء مجهول، تتحركان في صمتٍ ثقيل، محدقاً في تلك الغرفة بنظرات فزع كأنه قد طالع الشيطان لتوه! يدها ترتجفان بشكل غير منطقي، فتاريخهم يخلو من مواقف الخوف، خُيل لي بسبب الأجواء الباردة، أو اضطراب ما قد حلّ به. لا يبدو الأمر عقلانياً.

بحذر، تناولت الشمعة منه التي كانت تتراقص على يده بسبب رجفانه، ونظرت إلى عينيه القاتمتين كأن الخوف قد ابتلع بصيص الحياة فيهما، كان خائفاً خوفاً أستطيع شعوره والإحساس به ... كأن خوفه قد تسلل إلى جسدي.

قلبه بدا يخفق بقوة، ونبضاته التي تدقّ مسامعي أشبه بطرقات البيانو التي أيقظتني مفزوعة على أجليها، أما نظراته فلم تحول عن باب الغرفة وهو يخطو ببطء نحوها، صوت البيانو ارتفع وصار أكثر شدة، أنا أسمع النوتات، بدت لوهلة أنها نوتات هادئة، وبلحظة تحولت إلى نوتات غضب، ثم صرخات! صرخات بنوتات موسيقية تصدر من البيانو. كل خطوة بطيئة خطاها السيد جونز وأنا اتبعه بدت

كالميل، والثواني أمست كالدهر. أخيراً وصل باب الغرفة، وتوقف! وبيد مرتعشة أمسك الباب، يلتفت ناحيتي بنظرة أخيرة وكأنه يعلم ما ورائه، وأنه لوحده سيواجه مصيره! وأنا بتعابير رعب وبلحظة انهيار أراقبه من خلفه. فتح الباب على مهل، وما التقطته عيناى أنه لم يكن أحد يعزف بالغرفة! أغلق الباب خلفه، وصرت أسمعته يتحدث بلغة غريبة وبنبرة محملة بالهلع مع البيانو! وبعدها ... صراخ! صراخ السيد جونز الذي أصابني بالذعر، فتشتجت قدماى، وتصلبت في مكاني لا أقوى على الحراك، ولأثره سقطت الشمعة من يدي فاحترق السجاد ولهيب النار لاح قديمى، أغشى على ولم أستفق بعدها.

بعد ساعات ولا أدري كم مضى من الوقت، استيقظت بجمع غفير من الناس يحومون حولى، في تلك اللحظة فتح أحدهم باب الغرفة لنمتلى جميعنا بالذعر والفرع، فانهار على أثره الواقفون! كانت أطراف البيانو ومفاتيحه المغطاة بالدماء هي أطراف وأصابع السيد جونز، أما أوتاره فقد التفت حول رقبتة لتشنقه، وبعينين يتخللهما الرعب واليأس أفتش عن باقى نصفه، كأن البيانو فتح فاه وابتلعه!